﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾

موجز في تفسير سورة الشرح

إعداد: سليمان بيضون

*** السورة الرابعة والتسعون في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، نزلت بعد سورة «الضحى».**

*** سُمّيت بـ«الشرح» و «الانشراح» و«ألم نشرح» لابتدائها بعد البسملة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.**

*** آياتها ثمان، وهي مكيّة، وفي الحديث النبويّ الشريف أنّ «مَن قرأها أعطيَ من الأجر كمن لقيَ محمّداً مغتمّاً ففرّج عنه».**

*** ما يلي موجز في التعريف بهذه السورة المباركة اخترناه من تفاسير: (نور الثّقلين)، و(الميزان)، و(الأمثل).**

المعروف أنّ هذه السورة نزلت بعد سورة «الضحى» ومحتواها يؤيّد ذلك، لأنّها تسرد أيضاً قسماً من الهبات الإلهية للرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم، ففي سورة «الضحى» عرْضٌ لثلاث هِبات إلهية، بعضها مادّية وبعضها معنوية، وفي هذه السورة ذكْرٌ لثلاث هبات أيضاً، غير أنّ جميعها معنوية، وتدور السورة بشكل عامّ حول ثلاثة محاور:

الأوّل: بيان النعم الثلاث [شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر].

والثاني: تبشير النبيّ بزوال العقبات أمام دعوته.

والثالث: الترغيب في عبادة الله الواحد الأحد.

ولذلك ورد عن أهل البيت عليهم السلام ما يدلّ على أنّ هاتين السورتين سورة واحدة، ووجب قراءتهما معاً في الصلاة لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد.

ومن علماء المسلمين من أهل السنّة من ذهب إلى ذلك أيضاً، كما نقل الفخر الرازي عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنّهما يقرآنهما معاً في الصلاة ويحذفان البسملة بينهما.

فضيلة السورة

* عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «**من قرأها أُعطي من الأجر كمن لقي محمّداً مغتمّاً ففرّج عنه**».

* عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**من أكثر قراءة (والشمس)، و(والليل إذا يغشى)، و(والضحى)، و(ألم نشرح) في يوم أو ليلة لم يبقَ شيء بحضرته إلّا شهد له يوم القيامة حتى شعره، وبشَره، ولحمه، ودمه، وعروقه، وعصبه، وعظامه، وجميع ما أقلّت الأرض منه، ويقول الربّ تبارك وتعالى: قبلتُ شهادتكم لعبدي وأجزتُها له، انطلقوا به إلى جِناني حتّى يتخيّرَ منها حيث ما أحَبّ..**».

تفسير آيات منها

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ الآية:١.

* سُئل النبيّ صلّى الله عليه وآله: «يا رسول الله أينشرح الصدر؟

قال: **نعم**، قالوا: يا رسول الله وهل لذلك علامة يُعرف بها؟ قال: **نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإعداد للموت قبل نزول الموت**».

* الإمام الصادق عليه السلام: «(ألم نشرح لك صدرك) **بولاية أمير المؤمنين عليه السلام**».

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ الآية: ٤.

النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**قال لي جَبرئيل: قال الله عزّ وجلّ: إذا ذكِرتُ ذُكِرتَ معي**».

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الآيتان ٥-٦.

في رواية أنّه صلّى الله عليه وآله خرج مسروراً فرحاً وهو يضحك ويقول: «**لن يغلب عُسرٌ يُسرين**، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ الآيتان:٧-٨.

* الإمام الصادق عليه السلام: «**فإذا فرغت من نبوّتك فانصب عليّاً، وإلى ربّك فارغب في ذلك**».

* وعنه عليه السلام: «**هو الدعاء في دبُر الصلاة وأنت جالس**».

حقائق من السورة

* المراد بشرح صدره صلّى الله عليه وآله وسلّم جعْله بحيث يسَعُ ما يُلقى إليه من الحقائق، ولا يضيق بما ينزل عليه من المعارف، وما يصيبه من أذى الناس في تبليغها. وترتّب الآيات الثلاث الأُوَل في مضامينها، ثمّ تعليلها بقوله ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الظاهر في الانطباق على حاله صلّى الله عليه وآله وسلّم في أوائل دعوته، وأواسطها، وأواخرها، ثمّ تكرار التعليل، ثمّ تفريع آيتي آخر السورة كلّ ذلك يشهد على كون المراد بشرح صدره صلّى الله عليه وآله وسلّم بسْطُه بحيث يسع ما يلقى إليه من الوحي ويؤمر بتبليغه، وما يصيبه من المكاره والأذى في الله، وبعبارة أخرى: جعْل نفسه المقدّسة مستعدّة تامّة الاستعداد لقبول ما يُفاض عليها من جانب الله تعالى.

* رفع ذكره صلّى الله عليه وآله وسلّم إعلاؤه عن مستوى ذكر غيره من الناس، وقد فعل سبحانه به ذلك، ومِن رفْع ذكره أن قرَن الله اسمه باسمه، فاسمُه قرينُ اسم ربّه في الشهادتين اللتين هما أساس دين الله، وعلى كلّ مسلم أن يذكرَه مع ربّه كلّ يوم في الصلوات الخمس المفروضة.

* وضع وزره صلّى الله عليه وآله وسلّم إذهابُ ما يُحِسّ من ثقله بإنفاذ دعوته، وإمضاء مجاهدته في الله بتوفيق الأسباب، فإنّ الرسالة والدعوة وما يتفرّع على ذلك هي الثقل الذي حمله إثر شرح صدره.

(تفسير الميزان: ٢٠/ ٣١٤)

المراد بشرح صدره صلّى الله عليه وآله وسلّم جعْلُ نفسه المقدّسة مستعدّة تامّة الاستعداد لقبول ما يُفاض عليها من جانب الله تعالى

﴿..حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ..﴾

الكفر والارتداد يبطلان أثرَ الأعمال في تحقّق السعادة

العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي رحمه الله

بحثٌ قرآني مبسوط عن حَبْط عمل الكافرين خطّه العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي رحمه الله في تفسيره النوعي «الميزان»، المجلّد الثاني منه عقيب تفسيره الآية ٢١٧ من سورة (البقرة)، وهي قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الحَبْطُ هو بطلان العمل وسقوط تأثيره، ولم يُنسب في القرآن إلّا إلى العمل، كقوله تعالى: ﴿..لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الزمر:٦٥.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ محمد: ٣٢-٣٣.

وذيل الآية يدلّ بالمقابلة على أنّ الحبط [هو] بمعنى بطلان العمل، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿..وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هود:١٦، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ الفرقان:٢٣. «..».

بطلانُ الأعمال في الدنيا والآخرة

والذي ذكره تعالى من أثر الحبط بطلانُ الأعمال في الدنيا والآخرة معاً، فللحبط تعلّقٌ بالأعمال من حيث أثرها في الحياة الآخرة، فإنّ الإيمان يطيّب الحياة الدنيا كما يطيّب الحياة الآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل:٩٧.

وخسرانُ سعي الكافر -وخاصّة من ارتدّ إلى الكفر بعد الإيمان وحَبْطُ عمله في الدنيا- ظاهرٌ لا غبار عليه، فإنّ قلبه غير متعلّق بأمر ثابت وهو الله سبحانه، يبتهج به عند النعمة، ويتسلّى به عند المصيبة، ويرجع إليه عند الحاجة.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا..﴾ الأنعام:١٢٢، تبيّن الآية أنّ للمؤمن في الدنيا حياةً ونوراً في أفعاله، وليس للكافر.

ومثله قوله تعالى، ﴿..فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ طه ١٢٣- ١٢٤، حيث يبيّن أنّ معيشة الكافر وحياته في الدنيا ضنك ضيّقة متعبة، وبالمقابلة: معيشة المؤمن وحياته سعيدة رحبة وسيعة. وقد جَمع الجميعَ ودلّ على سبب هذه السعادة والشقاوة قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ محمد:١١.

فظهر ممّا قرّبناه أنّ المراد بالأعمال مطلقُ الأفعال التي يريد الإنسان بها سعادة الحياة، لا خصوص الأعمال العبادية والأفعال القُربيّة التي كان المرتدّ عمِلها وأتى بها حالَ الإيمان، مضافاً إلى أنّ الحبط واردٌ في مورد الذين لا عملَ

عباديّ ولا فِعلَ قربيّ لهم كالكفّار والمنافقين، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ محمد:٧-٩، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ آل عمران:٢١-٢٢، إلى غير ذلك من الآيات.

فمحصّل الآية كسائر آيات الحبط هو أنّ الكفر والارتداد يوجب بطلان العمل عن أن يؤثّر في سعادة الحياة، كما أنّ الإيمان يوجب حياةً في الأعمال تؤثّر بها أثرها في السعادة، فإنْ آمن الإنسان بعد الكفر حييت أعماله في تأثير السعادة بعد كونها محبطة باطلة، وإن ارتدّ بعد الإيمان ماتت أعماله جميعاً وحبطت، فلا تأثير لها في سعادة دنيوية ولا أخروية، لكن يرجى له ذلك إن هو لم يمت على الردّة، وان مات على الردّة حتم له الحبط وكتب عليه الشقاء.

الكفر والارتداد يوجبان بطلان العمل عن التأثير في سعادة الحياة، كما أنّ الإيمان يوجب حياةً في الأعمال تؤثّر بها أثرها في السعادة، فإنْ آمن الإنسان بعد الكفر حييت أعماله في تأثير السعادة

حبط الأعمال حين الارتداد أو عند الموت؟

ذهب بعضُهم إلى أنّ أعمال المرتدّ السابقة على ردّته باقية إلى حين الموت، فإن لم يرجع إلى الإيمان بطلت بالحبط عند ذلك، واستدلّ عليه بقوله تعالى: ﴿..وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ..﴾ البقرة:٢١٧، وربّما أيّده قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ الفرقان:٢٣، فإنّ الآية تُبيّن حالَ الكفّار عند الموت، ويتفرّع عليه أنّه لو رجع إلى الإيمان تملّك أعمالَه الصالحة السابقة على الارتداد.

وذهب آخرون إلى أنّ الردّة تُحبط الأعمال من أصلها فلا تعود إليه وإن آمن من بعد الارتداد، نعم له ما عمِله من الأعمال بعد الإيمان ثانياً إلى حين الموت، وأمّا الآية فإنّما أخذت قيد «الموت» لكونها في مقام بيان جميع أعماله وأفعاله التي عملها في الدنيا!

وأنت بالتدبّر فيما ذكرناه تعرف أنْ لا وجه لهذا النزاع أصلاً، وأنّ الآية بصدد بيان بطلان جميع أعماله وأفعاله من حيث التأثير في سعادته!

هل تُبطل الأعمال بعضها؟

وهنا مسألة أخرى كالمتفرّعة على هذه المسألة وهي مسألة الإحباط والتكفير، وهي أنّ الأعمال هل تُبطل بعضها بعضاً أو لا تبطل، بل للحسنة حكمُها وللسيئة حكمها، نعم الحسنات ربّما كفّرت السيئات بنصّ القرآن؟

ذهب بعضهم إلى التباطل والتحابط بين الأعمال، وقد اختلف هؤلاء بينهم، فمِن قائل بأنّ كلّ لاحق من السيئة تُبطل الحسنة السابقة كالعكس، ولازمُه أن لا يكون عند الإنسان من عمله إلّا حسنة فقط أو سيّئة فقط. ومِن قائل بالموازنة، وهو أن ينقص من الأكثر بمقدار الأقلّ ويبقى الباقي سليماً عن المُنافي، ولازمُ القولين جميعاً أن لا يكون عند الإنسان من أعماله إلّا نوع واحد حسنة أو سيّئة لو كان عنده شيء منهما.

ويردُّهما أوّلاً: قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ التوبة:١٠٢، فإنّ الآية ظاهرة في اختلاف الأعمال وبقائها على حالها إلى أن تَلحقها توبة من الله سبحانه، وهو يُنافي التحابط بأيّ وجه تصوّروه.

وثانياً: أنّه تعالى جرى في مسألة تأثير الأعمال على ما جرى عليه العقلاء في الاجتماع الإنساني من طريق المُجازاة، وهو الجزاء على الحسنة على حِدة وعلى السيّئة على حدة إلّا في بعض السيّئات من المعاصي التي تقطع رابطة المولوية والعبودية من أصلها، فهو مورد الإحباط، والآيات في هذه الطريقة كثيرة غنيّة عن الإيراد.

وذهب آخرون إلى أنّ الأعمال محفوظة، ولكلّ عمل أثره، سواء في ذلك الحسنة والسيئة. نعم الحسنة ربّما كفّرت السيئة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ..﴾ الأنفال:٢٩ «..» بل بعض الأعمال يبدّل السيّئة حسنة، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ..﴾ الفرقان:٧٠.

وهنا مسألة أخرى هي كالأصل لهاتين المسألتين، وهي البحث عن وقت استحقاق الجزاء وموطنه، فقيل: إنّه وقت العمل، وقيل: حين الموت، وقيل: الآخرة..

والذي ينبغي أن يقال: إنّا لو سلكنا في باب الثواب والعقاب والحبط والتكفير وما يجري مجراها مسلك نتائج الأعمال «..» كان لازم ذلك كون النفس الإنسانية ما دامت متعلّقة بالبدن جوهراً متحوّلاً قابلاً للتحوّل في ذاته وفي آثار ذاته من الصور التي تصدر عنها وتقوم بها نتائج وآثار سعيدة أو شقيّة، فإذا صدر منه حسنة حصل في ذاته صورة معنوية مقتضية لاتّصافه بالثواب، وإذا صدر منه معصية فصورة معنوية تقوم بها صورة العقاب، غير أنّ الذات لمّا كانت في معرض التحوّل والتغيّر بحسب ما يطرؤها من الحسنات والسيّئات كان من الممكن أن تبطل الصورة الموجودة الحاضرة بتبدّلها إلى غيرها، وهذا شأنها حتّى يعرضها الموت فتفارق البدن وتقف الحركة ويبطل التحوّل واستعداده، فعند ذلك يثبت لها الصور وآثارها ثبوتاً لا يقبل التحوّل والتغيّر إلّا بالمغفرة أو الشفاعة..

الإنسان يلحقه الثواب والعقاب من حيث الاستحقاق بمجرّد صدور الفعل الموجب له

الحبط كما يتعلّق بالأعمال الأخروية كذلك يتعلّق بالأعمال الدنيوية